الباب الأول

النساء شقائق الرجال

- الرجل والمرأة.
- الجنس واحد والنوع مختلف.
- أشرف المهن وأعلاها.
- المرأة شريكة الرجل.
- الأسرة وبقاء النوع.

الرجل والمرأة

الإنسان حين ينظر إلى موضوع من الموضوعات التي قد تختلف فيها العقول، يجب أن يبحث في موضوع مشابه له اتفقت فيه العقول، ولذلك يُرد الحكم في الأول المختلف فيه على نظام الحكم الثاني المتفق عليه.

وكلمة امرأة تعني أن لها مقابلاً وهو رجل، والمرأة تعني أُنثى، والرجل يعني ذكراً، فلو نظرنا إليهما لوجدنا أن هنا جنساً يجمعهما وهو الإنسان، وحين أقول جنساً يجمعهما وهو الإنسان أقصد أن الجنس هو ما يمكن أن ينشأ منه نوعان، أي ينشأ أفراد متساوون، فأنا أقول: الإنسان جنس لأنه ينشأ منه نوعان وهما ذكر وأنثى، وأن الذكر يأتي منه زيد وعمرو وعبيد، والأنثى يأتي منها فاطمة ورقية وزينب.

وإذا نظرنا إلى الجنس نجده ينقسم إلى نوعين، فيجب أن نقول: «إنه لم ينقسم إلى نوعين إلا لأداء مهمتين متكاملتين، وإلا لو كانت المهمة واحدة لظل الجنس واحداً، وانقسامه إلى نوعين دل على أن كل نوع له خصوصياته في ذاته، والجنس يجمع لهما معية خصوصية في ذاته، فمثلاً الزمن جنس يشمل الليل والنهار، هذا نور وذاك ظلام يشيران إلى النهار والليل، قد يظن البعض أن هناك تعارضاً أو تناقضاً بينهما، نقول له: لا.. النور لم يأت ليعارض الظلام، ولا الظلام يعارض النور، ولذلك لا يصح أن نقارن بين نور وظلام لأن لكل واحد منهما مهمة يؤديها لا يستطيع الآخر أن يؤديها بل هما مكملان لرسالة الحياة.

والزمن الذي ينقسم إلى ليل ونهار بجنسيته له معنى مشترك، وهو: أنه ظرف لحدوث الأشياء فيه، وبعد ذلك ينقسم إلى نوعيه: النهار والليل، إذن.. النهار له مهمة، والليل له مهمة أخرى.

الحق سبحانه وتعالى حين يعرض لهذه القضية؛ يعرضها عرضاً واضحاً معللاً فيقول تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

إذن.. جاءت علة الليل وهو للسكن والهدوء والراحة والاستقرار، والنهار

للكدح والعمل، لا نستطيع أن نقول إن الزمن كنهار دائم ينفع، أو كليل دائم ينفع؛ ولكنهما متعاقبان، وهذا التعاقب من لزوميات التكامل فلا نعرف قيمة الليل إلا إذا عشنا النهار، ولا نعرف قيمة النهار إلا إذا صاحبنا الليل، ولكن قيمة التكامل تعطي كمال الجمال، إذ يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص].

إذن.. الحق سبحانه وتعالى من رحمته أنه جعل الزمن ـ وهو كجنس، ظرفاً لحدوث الأشياء فيه ـ نوعين، كل نوع يؤدي مهمة، فلو أردنا تشبيه الليل بالنهار، أو النهار بالليل نكون قد خرجنا عن المهمة الأصلية الموجودة لهما، ومع هذا التوظف لليل وللنهار نلمس في الآية استفهاماً يحمل جواب التوحيد للواحد الذي بيده الملك وله الأمر.

الجنس واحد والنوع مختلف

الرجل والمرأة نوعان لجنس واحد وهو الإنسان، فكأن هناك أشياء تُطلب من كل نوع من جنس الإنسان، أشياء تطلب من الرجل كرجل، ومن المرأة كامرأة بحيث نستطيع أن نقول إنهما كنوعين من جنس واحد لهما مهمات، مهمات مشتركة كجنس، ومهمات مختلفة كنوع، وعن طريق مهمة كل منهما تسير الحياة.

والحق سبحانه وتعالى حينما عرض قضية الليل والنهار وهي قضية كونية لا يختلف فيها أحد، ولا يمكن لأحد أن يعارض فيها لأننا جميعاً نجعل الليل للسكن والراحة، والنهار للكدح والحركة، والحق سبحانه وتعالى في هذه القضية إنما يقدمها إيناساً بالقضية التي يمكن أن يختلف فيها وهي قضية الرجل والمرأة فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل].

إذن.. للزمن نوعان لا يمكن أن يختلف فيهما فكان لليل مهمة، وللنهار مهمة، وكان تبعاً لذلك الرجل والمرأة ولكل منهما مهمة مكملة للآخر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

ويأتي في القضية العامة فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢].

الرجل لا يتمنى أن يكون امرأة، ولا المرأة تتمنى أن تكون رجلاً إلا عند

والله سبحانه وتعالى بعد ذلك ضرب مثلاً للقضية المقابلة فقال تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

= هي للناس جميعاً، وهداية المعونة هي للمؤمنين فقط المتبعين لمنهج الله.

والله سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة، أي: دلهم على طريق الخير وبيّنه لهم، فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه، ومن جحد وعصى، تركه الله لما اختار.

هذه الهداية العامة هي أساس البلاغ عن الله، فقد بيّن لنا الله تبارك وتعالى منهجه الذي هو «افعل ولا تفعل» ما يرتضيه سبحانه وما يغضبه، وأوضح لنا الطريق الذي إن اتبعناه اهتدينا، وكذلك الطريق الذي لو سلكناه يحق علينا غضب الله وسخطه، عياذاً بالله من غضبه وعقابه.

ولكن.. هل كل من بيّن له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدى ؟!

يقول ربنا جل جلاله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

إذن.. هناك من عرفهم الله، ولكنهم عصوا بالاختيار الذي أعطاه الله لهم، فما الذي يحدث للذين عرفوا طريق الهداية وألزموا أنفسهم به والذين لم يتبعوه، وخالفوا مراد الله الشرعي في كونه ؟

الذين التزموا طريق الهداية يعينهم الله سبحانه وتعالى ويحببهم في الإيمان ويؤتيهم التقوى ويحببهم في الطاعة؛ يقول تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾.

أما الذين جحدوا وحادوا عن منهج الله وعصوا أمره، فإن الله تبارك وتعالى لا يهديهم سواء السبيل، ويتركهم في ضلالهم يعمهون[1] يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه].

ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

والله سبحانه وتعالى قد بيّن لنا المحرومين من هداية المعونة على الإيمان وهم ثلاثة أصناف، كما بيّنهم لنا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

منهاج الصالحين [١/ ٨٠ ـ ٨٢]. =

---

(١) العمه: التحيّر والتردد، قال ثعلب: هو أن لا يعرف الحجة، وقال اللحياني: هو تردده لا يدري أين يتوجه؛ وفي التنزيل العزيز: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ومعنى يعمهون: يتحيّرون.

لسان العرب [١٣/ ٥١٩].

انحراف الفطرة أو الشذوذ، أو التمرد على القيم، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»[(١)]. لأن ذلك خروج عن النوعية المقصودة، وكذلك كل أزواج الحياة، ومن هنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وكذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

أي: خلق من جنسها زوجها.

إذن.. فالزوجية في الإنسان، وفي النبات، وفي الحيوان هي التكاثر، والتكاثر في هذه الأشياء لأجل أن يحفظ النوع، والحق سبحانه وتعالى بين لنا أن لكل نوع من الجنس مهمة يؤديها، هذه المهمة التي يؤديها يجب أن يقف عندها، وإذا ما وقف عندها أمكن لكل نوع أن يؤدي مهمته بدون تعارض بل بتساوٍ وتعاطف، والذي يفسد الأمر أن نوعاً يريد أن يُغير على حقوق نوع آخر، أو على واجبات نوع آخر، وبناء على ذلك يحدث الخلل في النظام الاجتماعي، ومن ثم الفساد في نظام الحياة.

القدر المشترك هو المطلوب من الجنس كإنسان، بالنسبة إلى دين من الأديان هو الاعتقاد، والمرأة مطلوب منها أن تعتقد العقيدة التي تقتنع بها، والرجل كذلك، ولا يمكن لرجل أن يفرض عقيدته حتى على امرأته، والقرآن الكريم أوضح هذه المسألة في أقوى صورها، فمثلاً الرسل؛ وهم الذين جاءوا ليهتدي بهم الناس إلى منهج الله، كان أولى بهم أن يحملوا زوجاتهم على منهج الله، ومع ذلك لم يستطيعوا، وعرض القرآن ذلك في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

فالرسول أرسله الله لهداية الناس، ومع ذلك قد لا يستطيع أن يحمل امرأته على اتباع منهج الله[(٢)]، إذن.. فللمرأة أن تعتقد ما ترى كإنسان له حرية الاعتقاد.

---

(١) رواه أحمد في المسند [١/٣٣٩] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وقال الشيخ شاكر [٣١٥١] إسناده صحيح، وأخرجه البخاري [٥٨٨٦، ٦٨٤٣] بلفظ: لعن النبي ﷺ المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء. وقال: «أخرجوهم من بيوتكم».

(٢) قال فضيلة الشيخ الشعراوي والهداية نوعان: هداية دلالة، وهداية معونة، هداية الدلالة

إذن . . فالقضية الأولى التي تميز هذا الدين هي: حرية الاعتقاد، وعلى ذلك

= وقال العلامة ابن القيم: فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق. وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه، وتزيينه في قلبه، وجعله مؤثراً له، راضياً به، راغباً فيه. وهي هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما وهما متضمنتان تعريف ما لم تعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً. ثم خلقُ القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم. ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن ههنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم.

وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوته الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور؛ كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى - وهي آخر مراتبها - وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها. فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار؛ يكون ثبوت قَدَمه على الصراط المنصوب على مَتْن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط؛ يكون سيره على ذلك الصراط.

فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطَّرْف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المكردس[1] في النار. فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذْو القُذّة[2] بالقذة جزاء وفاقاً: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب[3] التي بجَنْبتي ذلك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه: فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

بدائع التفسير [١/ ١١٦ - ١١٧] =

(١) الكردسة: الوثاق. والرجل المكردس: الذي جُمعت يداه ورجلاه، وأُلقي إلى موضع. لسان العرب [٦/ ١٩٥].

(٢) القذة: ريشة الطائر والنسر والصقر، بعد تسويتها وإعدادها لتُرَكَّب في السهم. الوسيط [٧٢١].

(٣) جمع كلُّوب وهو حديدة معطوفة الرأس يُعلق فيها اللحم وترسل في التنور. شرح النووي على مسلم [٢/ ٣٠].

فإن للمرأة أن تعتقد ما تشاء لأن هذا الاعتقاد سيلزمها منهجاً تسير عليه، فإن لم ترتبط بالعقيدة باختيارها، فإقبالها على المنهج غير مأمون.

والقرآن الكريم حين يعرض لنا مثل هذه النماذج، يعرض لنا نموذجاً لموقف ملكة سبأ بلقيس، ليعطي لنا صورة لرجاحة عقلها وحكمها على الأشياء من خلال الشورى وحسن الرأي.

فعندما أرسل سليمان الكتاب بعد خبر الهدهد له، ماذا كان موقف بلقيس؟ جمعت قومها وقالت: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾ [النمل].

كما قالت: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢].

فماذا قال لها رجال جيشها؟ ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

والمعنى: هذه مسألة سياسية، ونحن جيش قوي؛ تأمريننا بالحرب نحارب، ولكنك أنت التي تقدرين ماذا نعمل؟ وماذا نصنع؟

قالت: سأرسل إليه هدية لأعلم مطلبه من خلال قبوله أو رفضه للهدية.

إذن.. أمكن للمرأة أن تفكر التفكير السليم للوقوف على شخصية سليمان، أهو ملك من جباري الدنيا أم له مهمة أخرى؟ فأرسلت الهدية، فكان من موقف سليمان: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

فقالت بلقيس: نذهب إليه إنه إنسان لا يريد المال، فله منهج ودعوة، وقال سليمان: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

وهنا ننظر إلى رجاحة عقل المرأة، كيف استطاعت أن تقف الموقف الدقيق، وتعبر التعبير الدقيق وتجيب الإجابة الذكية.

عندما وجدت العرش عند سليمان قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢]. ولم تقل: هو لأنها لم تعلم السر عند سليمان.

إذن.. هذه صورة من صور التفكير السليم، والتدبير الحكيم عند بعض النساء.

المرأة من حيث كونها جنس محل الاعتقاد الحر، ومحل لاستعمال عقلها في الأمور التي يعجز عنها بعض الرجال وهي محل لاصطفاء الله تعالى كاصطفائه سبحانه للسيدة مريم أم عيسى عليهما السلام، ووحيه سبحانه إلى أم موسى عليه السلام.

وإلى جانب حرية الاعتقاد فقد أعطى الإسلام للمرأة حرية التملك، وحرية الاختيار، وحرية الرفض والقبول، وحرية التصرف في ملكها.

أشرف المهن وأعلاها

عمل الرجل هو التعامل مع كل أجناس الحياة؛ فهو يمكن أن يكون زارعاً يتعامل مع الأرض، أو صانعاً في مصنعه، أو تاجراً في متجره، أو عاملاً في عمله، أيًا كان هذا العمل فهو في خدمة الإنسانية، والإنسان أرفع هذه الأجناس كلها، ومهمة المرأة هي التعامل مع ذلك الجنس الراقي وهو الإنسان؛ كجنين في بطنها، وكوليد تحمله وتعطي له المثل في التربية؛ ثم كزوج تحنو عليه ويسكن إليها.

إذن.. فالرجل يتعامل مع الأشياء التي دون الإنسان، والمرأة تعاملها الأساسي هو مع الإنسان؛ فالطفولة هي ميدان عمل المرأة الرئيسي، وما دامت الطفولة زادت فهي تزيد بقدر المهمة.

من الذي يتعامل مع الطفل؟ الرجل يخرج إلى عمله، والطفل مع أمه إلى أن يذهب إلى المدرسة في سن السادسة مثلاً، ومعلوم أنه قبل تلك السن يكون العقل فارغاً.

الأم إذا كانت مشغولة بأي عمل من الأعمال يعني ذلك أنها ستتركه إلى راع من غير الأبوين، إلى خادمة مثلاً، والخادمة قد تكون أمينة، ولكن لا يمكن أن يكون لها قلب الأم، وقد أثبتت بعض البحوث العلمية أن نمو الطفل في مثل هذه السن قد يكون متخلفاً نظراً لغياب الأسرة والتعامل مع المربية، أما إذا كان الطفل في مجتمع من أبيه وأمه وإخوته المتفاوتين في الأعمار، ومع جدته وجده، فالطفل الصغير سيتلقى معطيات من كل جيل، وهذا من إعجاز القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

الطفل في هذه السن يتقبل من كل قطاعات الإنسان، القطاع الكبير والمتوسط، والصغير، والمرأة مهمتها هي أشرف المهن وأعلاها، فمهمة المرأة سكن للزوج، وبعد ذلك حاضنة للأطفال، وهذا يعطيها أشرف مهنة في هذا الوجود، ويجب أن تأخذها المرأة بشيء من الاعتزاز والرضا.

ولكن في الواقع الذي نحياه الآن فحدث ولا حرج؛ إن المرأة في هذا الواقع الذي نعيشه لم تخفف من شقاء الرجل، فهو ما زال في تعبه، بل ازداد شقاءً، وازدادت هي معاناة، الرجل لم يأخذ نصف عمل في الخارج فما زال يعمل عمله

كله، والمرأة إذا تعللت بمشاركة الزوج في عمله لتزيد الدخل لمستوى حياة أفضل، فليس المفروض في الإنسان الذي له قيم ربانية أن يفرض مستوى الحياة أولاً؛ وبعد ذلك يجعل الدخل علة، عليه أن يوازن بين الدخل والمنصرف، لأنه في حالة حصول خلل في الموازنة تكون الحياة مليئة بالأشواك والانحراف.

المرأة شريكة الرجل

في قصة آدم عليه السلام، قال الله سبحانه وتعالى لآدم وزوجته يحذرهما من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧].

إذن.. العداوة مسبقة لأن الشيطان رفض السجود، وهنا الخطاب لآدم ولزوجته، فقد كان المفروض أن يقول القرآن: «فتشقيا»، ولكن جاء القول في القرآن معبراً التعبير الدقيق، التعبير الذي يوضح لكل واحد منهما مهمته، فالشقاء لآدم وحده، فكأن آدم مخلوق للكفاح ولمقابلة صعاب الحياة.

آدم يتحرك حركته في الحياة، ويأتي ليهدأ عندها ـ عند المرأة ـ فهي مصدر العطف الذي يمسح بيده على كل متاعبه لتزول، فيستأنف الحياة بعد ذلك بشيء من النشاط، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

فالمهمة الأساسية هي: أن يسكن إليها الرجل، وكلمة «يسكن إليها» كلمة معبرة، ومعنى السكن إليها أنه كان متحركاً يكدح ويأتي ليسكن إليها.

وبعد ذلك تجيء المهمة الثانية: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

ثم يأتي بعد ذلك البنون والحفدة، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

إذن.. فالمهمة الأساسية للمرأة هي أن يسكن إليها الرجل، ولو تأملت المرأة هذه المهمة لوجدتها تستوعب كل وقتها، تعمل لبناء أسرة في بنائها بناء المجتمع الفاضل، ثم يأتي الرجل ليجد بيته ساكناً مستقراً كل أموره مرتبة، وبعد ذلك تكون وعاء للتكاثر؛ ثم يأتي دور تنشئة الأجيال لاستقبال الحياة.

الأسرة وبقاء النوع

إن للإنسان عمراً محدداً بحياة وسينتهي ولا بد. لذلك يجب أن يستبقي الإنسان النوع في غيره.. كيف؟ يحدث ذلك الاستبقاء بالزواج وتأتي الذرية،

البنون والحفدة، وتسير السلسلة لاستبقاء النوع. والحق يريد أن يكون الاستبقاء للنوع كريماً. لذلك يأمرنا الحق سبحانه أن نستبقي النوع بأن نختار له الوعاء الطاهر. فإياك أن تستبقي نوعاً من وعاء خبيث نجس يقول ﷺ: « تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم »[١]. فلا يدري أحد لمن يُنسب الولد فيصير ضائعاً في الكون.. لقيطاً.. والله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان أن يختار لنفسه الوعاء النظيف ليستبقي النوع بكرامة. والحصول على الأوعية النظيفة يكون بالزواج فيختار الرجل أنثى.. وترضى الأنثى به زوجاً على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.. ويصير معروفاً للجميع أن هذه امرأة، وهذا زوجها، دخوله وخروجه غير ممقوت، وبعد ذلك ما ينشأ من الذرية يكون منسوباً إليه. ويخجل الإنسان أن يكون ابنه مهيناً أو عارياً أو جائعاً أو غير معترف به. والابن حين يكون منسوباً لأبيه تتكون شخصيته، لأن الأب فيه دفء الحماية، وجمال الرعاية التي تكسب الولد كرامة النفس وعز الحياة، فلا يكون مهيناً ولا ذليلاً ولا تائهاً في بيداء التكران.

إذن.. فالأسرة في حماية الله تعالى وأمنه سبحانه.

ومن العجيب أننا نجد هذه المسألة ذات آثار واضحة في الكون. فالتي ترمي أثر جريمتها في الشارع. هي تحاول بالحنان الطبيعي ألا تلقي ابنها الوليد في البحر.. إن الطفل مربوط بحنان ولكن الحنان غير شرعي. لذلك تضع الطفل أمام المسجد ليلتقطه أحد الصالحين ليربيه.

الزانية تعرف في قرارة نفسها أنه لا يدخل المسجد إلا إنسان صالح، سوف يرق قلبه للوليد، ويأخذه ويصير مأموناً عليه.. الزانية لا تلقي بوليدها عند خمارة أو دار سينما، ولكن دائماً تضعه عند أبواب المساجد؛ أي أن الحنان يدفعها إلى وضع الطفل غير الشرعي أمام المسجد لأن هناك عاطفة تشدها إليه وإن كانت خائنة.. إنها تخاف على وليدها فتلفه وتضعه في أحلى الملابس وإن كانت غنية فإنها تضع معه بعضاً من المال.

إن الحنان يدفعها إلى وضع الطفل أمام المسجد، والحياء من الذنب هو الذي جعلها تتخلص من الطفل وتحتاط بأن تضعه في مكان يدخله أناس يسجدون لله.

---

(١) رواه ابن ماجه [١٩٦٨] عن عائشة رضي الله تعالى عنها، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه [١٦٠٢] وانظر الصحيحة [١٠٦٧].